قش وزبد

توفيق بوشري "المغرب"

لم هذا التلفاز داخل إطار؟ لماذا هو الملعون نفسه إطار؟ تساءل أو همس كائن مثقف، يعني ينتمي إلى فئة يصنفها إطار. ذكر نفسه بأن هذه الحياة الرديئة هي في الأصل إطار تتنازع زواياه مشاعر مقيتة: جشع، كراهية، حقد، قمع... وبعض الحب في غرفة إنعاش يستجدي بعض الأوكسيجين عبثا. شجن الإمكانات المضيئة المستحيلة تلوح في أفق حزين. صمت محاولا إسكات تفكيره وهو يرتعد من البرد تارة، فالفصل شتاء، وتارة أخرى يضحك بحمق، يتحرك حركات شبه مجنونة مثل قرد. يحملق في الشاشة، يشاهد البرنامج. جلس أناس مبتذلون معروفون في استوديو باذخ يتجاذبون أطراف كلام جميل.. مثل ماذا؟ مثل الحركات البلهاء التي أتعب بها عضلاته الوهنة دون أن يشعر بدفء. إنه التعديل الدستوري يا سادة. يقول أحد المتملقين بأنه منعطف هام وغير مسبوق. بلغت الكلمات الرنانة مسمعيه، لتفوح بترقب مفكر فذ بمذاق ساخر! قفز فجأة من مكانه الرتيب المزري غير آبه بالتلفاز أو البرنامج في الظاهر. صفق تصفيقة كغوريلا أفزعته هو نفسه، فانفجر

مقهقها بشكل فج. اتجه صوب النافذة كأنه يبحث عن موقف مماثل غير معلن. يصوغ الانتظار الفارغ، ليدعم إحساسه الحانق بشيء ما..

كانت هناك نوافذ كثيرة، أطر أو تلفزات تخفي من ورائها بيوتا متشابهة تقريبا.

لا بد أنه في بيت ما هناك، يوجد شاب بعينين واسعتين، قابعتين لعلة ما وراء نظارات لا تخفي وسامته المعبرة عن الطامة الوسطى؛ حيث أغلب أمثاله لا هم بجهلة ولا هم بعارفين. تسمر الشاب أمام الشاشة الملونة يولج مقاطع صوتية عقله، أو خلية ما بنصف شغف مفعم بإيمان مخيف. لعله توظف حديثا هذا الكائن. ها هو الأب ينظم إليه أمام الإطار، عفوا، التلفاز.

- يتحدثون عن تعديل الدستور؟

- نعم يا والدي، إنه تغيير هام جدًا..

- سيغير الكثير من الأمور والممارسات. هذا قرار شجاع.

نبس الهواء: هلا حدثتمانا عن هذه الأمور التي ستتغير بالتفصيل؟ وما الضير في الدستور القديم أو الأقدم منه؟

استمرا يدليان بأفكار ملتبسة، يتوهمان ويوهمان لست أدري من باقتناع

مبرراته ذاتها تعيقه لو امتلكا بعض النور عدا نور الغرفة..

دخلت الأم تحمل الشاي والخبز، وقبل أن تضعهما على المائدة البئيسة، انتفض الشاب الوسيم مغتبطا: أمي اجلسي واستمعي، سيغيرون الدستور.

- وهل هذا أمر جيد (من جديد)؟

- نعم فيه خير كبير! صاح الأب أو نهق..

- اللهم زدنا خيرا وبركات.

اغتم الهواء بشدة: هل فهمت أيتها السيدة شيئا من هذا حقا؟

عادت إلى مطبخها تشكو من غلاء الخضر والزيادة في أنبوبة الغاز..

في البيت الثالث، كان التلفاز مشغلا أيضا. دستة أطفال يلهون ويقفزون، يصيحون ويركضون رغم ضيق المكان. الأب منهمك في إعداد سيجارة حشيش ليبدأ ليلة الهلوسة المعتادة حتى يدثر الوضع المزري لاشعوريا. الأم كانت في ركن يشبه زنزانة انفرادية تحضر قدرا متفحمة من ماء وأرز، تصدر من حين لآخر صيحة عظيمة:

- هل بدأ المسلسل؟ اصمتوا يا أولاد الـ...

يجيبها الأب البيولوجي: ها؟ لست أدري.. هناك جماعة يتحدثون عن دستور؟ هل هو المسلسل الجديد؟

- لا، لا يا منحوس. المسلسل اسمه سنوات الخيبة، نادني عندما تبدأ شارة موسيقى حزينة..

البيت الرابع.....

البيت الخامس بدا هادئا، حتى صدر صوت جهوري: هيا يا عائشة، اجلبي لنا العشاء بسرعة، غدا لدينا عمل كثير. علال ستذهب معي إلى المركز لشراء الأسمدة، لعنهم الله. زادوا في ثمنها حتى قارب ثمن القمح نفسه. سعيد، لا تنس يا بني إخراج البهائم باكرا ولا تغفل عنهم فتضيع شاة أخرى كما وقع عندما نمت آخر مرة.. تذكر ما أكلت من طيبات! رحمة، بنيتي، رافقي أمك إن شاء الله لإحضار الحطب من الغابة فقد نفد، إن وجدتما شيئا. خذا معكما برقوق الكلب ليحميكما من الوحوش!

- أبي، أ لن نشاهد التلفاز الليلة؟

- حسنا، لفترة العشاء فقط. البطارية جديدة ونريدها أن تكفينا لبقية الشهر. ثمنها يقارب ثمن جدْي..

التلفاز الأبيض والأسود: التغيير والإصلاح يجب أن يصدرا عن الشعب ومن الشعب وليس...

- يا لطيف، لا يتعبون من الكلام. صاح أحد الإخوة.

- حتى القناة الأخرى التي لم يبق غيرها فيها نفس الكلام..

- أوقفوه. غدا ستكون هناك سهرة شعبية عظيمة.

الهواء: عائشة.. أحضري الأغطية واستلقوا.. الكل نائم.

البيت السادس.....

البيت السابع. ليس فيه بيت. أطفال ونساء، رجال وعجائز يتسكعون بين الدروب والشوارع، يطردونهم من المناطق العمومية النادرة الممنوعة ليركضوا صوب الخرائب المهجورة والمزابل ليقتاتوا من حاويات القمامة، ثم يعودون ليسرحوا يستجدون المارة في كل مكان، في محطات الناقلات، أمام المساجد، البنوك... يسكنون البيت المفتوح على كل شيء، خاصة الفظيع من الأشياء.. بيت العوالم التي لا يحس بها سواهم يتعايشون معها بفضل أنواع المخدرات الرخيصة والمهلوسات المباحة..

البيت الثامن....

البيت (القصر) التاسع، كانوا يتساءلون ما إذا كان الإصلاح المزعوم سيؤثر على وضعهم القديم فعلا. هل سيكون حقيقيا. وحتى إذا كان وهما، هل سيبقى كذلك، خاصة بعد كل ما حدث في بعض بلدان الظلام مؤخرا من هزات غير متوقعة. هل عليهم أن ينتقلوا إلى الخطط البديلة؟ مضاعفة الأرصدة المهاجرة أولا وتكديسها في الجنة قبل الالتحاق بها بغير قيامة إذا ما شارفت اللعبة على أخذ مسارات خطيرة..

الهواء: لا، لا.. ليس إلى هذه الدرجة يا سادة. لازال الكابوس/الحلم بعيدا. حتى أنه يعانق الأفق هناك في مكان مجهول. لا تخشوا نصيحتي فلا شيء يدل على صحة تخوفكم أيها المبشرون بالأرض..

البيت العاشر....

البيت الحادي عشر....

البيت (الوكر).. ينتبهون، يصفقون وهم يصوغون الحاجات الكامنة في جوف طفيليات تعرف من أين تؤكل الأكتاف، بعد أن أكلت الأدمغة السارحة في ملكوت الجهل.

صمت الهواء مصعوقا.

في البيت (القلعة) الأول، كان الناي يترنح، مُصدرا معزوفة مبهمة. الأغنام جلها يستمتع ببقع من عشب مصفر مغبر وعيونها على كومة برسيم افتراضية، بعضها يتمايل على النغمات ولا تعرف هل هو رقص أم موت بطيء إثر ذبحة عالية الحرفية.. والراعي يدخن الشيشة وهو يلون اللوحة بما يناسب حتى تظل وحدها المثالية في صالة العرض..

***